التراث الثقافي كركيزة للهوية الوطنية والدبلوماسية الثقافية

خديجة البلوشي
طالبة بسلك الدكتوراه بجامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
المغرب

مقدمة:

لا شك أن التراث من أهم الأسس التي تشكل الهوية الوطنية، فالتراث يعتبر مرجعية تاريخية وثقافية أصيلة في تحديد المعارف وتأصيل الهوية وتقوية الشعور بالانتماء للوطن ويزيد من لحمة المجتمع وانسجام مختلف مكوناته. والتراث هو مجمل المنجزات المادية والصناعية، والنظم المعرفية والمنظومات الفكرية والأخلاقية التي تشكلت وتكاملت مع الأجيال المتعاقبة وانصهرت في بوتقة واحدة، لتشكل وحدة تعتبر الأصل في كل أمة، يرجع إليها كأرضية ثابتة للانتظام في الحاضر والانطلاق الى المستقبل، ولا يمكن لأمة أن تعيش أو تستغني عن تراثها إلا إذا انصهرت في تراث أخر مما يشكل عائقا في تشكيل الهوية.

إن الوعي بأهمية الحفاظ على التراث أصبح ضرورة حتمية، كونه جزء لا يتجزأ من ذاكرة الأفراد والأمم، بل يشكل مرجعيتها الأصلية التي إذا ما تم التهاون في حفظها تولد عنها جيل مغترب وأفكارا شاذة. لقد تنبهت الأمم إلى ضرورة الحفاظ على تراثها وقيمها وهو أمر مرتبط بسياق عالمي موسوم بتحولات كبرى على كافة الأصعدة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والبيئية.

فالسعي إلى الحفاظ على التراث، وتوظيفه توظيفا عقلانيًّا يمكن من خلاله الاستفادة من منافعه حاضرًا ومستقبلًا، وهو ما يؤدي إلى ترسيخ الهوية الفردية والجماعية، لأن التراث أهم مشكل للهوية الجمعية في ظل انتماء معين.

وإن كان مفهوم التراث يأخذ مكانه المميز في نسق المفاهيم التي ترتبط بحياة الناس وتاريخهم ومؤثرات وجودهم، فإن تشكل هذا المفهوم يمثل أحد العناصر الأساسيَّة للهويَّة الثقافيَّة عند الشعوب والجماعات والأمم. وينهمك الباحثون والمفكرون العرب اليوم في مقاربة مسألة التراث والموروث الشعبي بالعلاقة مع مختلف إشكاليات الحياة الفكريَّة والثقافيَّة المعاصرة، وقد شهدت الساحة الفكريَّة فيضا غامرا متدفّقا من الدراسات الجادَّة حول العلاقة بين التراث والحداثة كما بين التراث والهويَّة والأصالة. وتأسيسا على ذلك قد بدأ مفهوم التراث يحتلّ مكان الصدارة في الخطاب الفكري المعاصر.

فالتراث هو التاريخ الذي يعيش فينا ونعيش فيه في كل لحظة واحدة. وهذا يدل في النهاية على أن التراث يشكل البوتقة التي تتشكل فيها عقليَّة المجتمع وتصورات الجماهير وقيمها ومثلها وعاداتها أي أنه يشكل هويتها.

مشكلة البحث:

إلى أي حد يمكن للتراث الثقافي حماية الهوية الوطنية والدبلوماسية الثقافية؟

خطة البحث:

المحور الأول: مفهوم التراث الثقافي

المحور الثاني: دور التراث الثقافي في حفظ الهوية الوطنية والدبلوماسية

المحور الأول: مفهوم التراث الثقافي

التراث الثقافي هو ثروة من الآداب والقيم والعادات والتقاليد والمعارف والفنون التشكيلية والموسيقية ..... وهو أيضا من العلوم التي باتت تدرس في الجامعات والمعاهد، ويمكن أن نقول أن التراث هو كل موروث ينتقل من جيل إلى آخر، كما يعرفه آخرون أنه خلاصة ما خلفته الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة أي ما يتركه الأجداد للأحفاد والأسلاف للأخلاف ليكون عبرة من الماضي ونهجا يتعلم منه الأبناء الدروس ليعبروا بها الى المستقبل. فالتراث مفهوم واسع يتضمن البيئة الطبيعية والثقافية التي تشمل المناظر الطبيعية والأماكن التاريخية والمواقع الثقافية والتنوع البيئي، والممارسات الثقافية الماضية والحاضرة، كما يشمل جميع المعارف التي حصل عليها المجتمع وكذا خبراته الحياتية الماضية والحالية كما يقوم التراث بحفظ التطور التاريخي للشعوب والأمم ويشكل الهوية الوطنية والإقليمية والمحلية لتصبح جزءا من الحياة المعاصرة[1].

فالتراث الثقافي لا يقتصر فقط الجوانب المادية، وإنما يمكن أن يشمل التراث غير الملموس، بل الواقع أن بعض أهم الموارد التراثية هي تراث غير ملموس. ويشمل هذا النوع من التراث اللغة والتي هي أداة ذات أهمية قصوى لأية جماعة فاللغة بطبيعة الحال ملمح يقتصر على الجنس البشري، وتأثيرها الجوهري على جميع سلوكيات البشر مفروغ منه، حيث أتاحت للإنسان الحصول على المعارف ونقلها من جيل إلى جيل كما أن اللغة تسمح بالحوار المتحضر، والنقاش، والشعر، بل وأيضا التفكير، إلا أن للغة أهمية من زاوية أخرى أقرب المجال الحفاظ، فعلى سبيل المثال، فإن تحليلاتها الدقيقة يمكن أن تلعب دوراً مهماً في العلوم التاريخية المختلفة حيث توفر معلومات في غاية الأهمية عن العلاقات بين الناس في العصور القديمة والهجرات وبالتالي تحولها إلى دليل تاريخي مهم كما أن الطقوس التقليدية هي أيضاً تراث غير ملموس، وكذلك المعتقدات، وقوانين السلوك، وحتى الأديان، كما أن المعارف والمهارات التقنية جزء من هذا التراث وهي ظاهرة قد يتم الاعتراف بها رسمياً[2].

فكلمة تراث تدل في الأصل على المال الذي يورثه الأب لأبنائه أو كل ما يرثه الآبناء من خيرات وأموال عن آبائهم، وقد تطوَّر مدلول هذه الكلمة لتدل على كل ما يرثه الإنسان من الآباء والأجداد أكان هذا الموروث ماديا أو معنويا. وتجد لفظة "التراث" جذورها العربيَّة في ألفاظ: وَرَثَ: فالورث والإرث والوِراث والتراث.. كلها بمعنى واحد. وتبين بعض مناحي البحث في كلمة تراث أن أصل التاء فيها حرف الواو، فهي الوراث وهي تعني حرفيا: ما يتركه الإنسان لورثته الذين أتوا من بعده. وقد اتَّسع مضمون هذه اللفظة لتشتمل على دلالات ثقافيَّة ومعرفيَّة وتاريخيَّة يتوارثها أبناء المجتمع أجيالا بعد أجيال، وتشير اليوم هذه الكلمة إلى الإرث الفكري الذي تراكم بفعل جهود الأجيال السابقة عبر قرون الحضارة والثقافة. وفي ضوء المصطلح اللغوي" نرى أن التراث لفظ يشمل الأمور الماديَّة والمعنويَّة؛ ويتمثَّل في جميع ما يبقيه الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد؛ فهو قبل كل شيء هذه الأرض التي نعيش عليها؛ ويجب أن يحتفظ الوارث بها[3].

المحور الثاني: دور التراث الثقافي في حفظ الهوية الوطنية والدبلوماسية

إن التراث الثقافي غير المادي يتعرض لأخطار التدهور والزوال والتدمير، ولا سيما بسبب الافتقار إلى الموارد اللازمة لصون هذا التراث، وإدراكاً منه للرغبة العالمية النطاق والشاغل المشترك فيها يتعلق بصون التراث الثقافي غير المادي للبشرية، وإذ يعترف بأن الجماعات، وخاصة جماعات السكان الأصليين، والمجموعات، وأحياناً الأفراد، يضطلعون بدور هام في إنتاج التراث الثقافي غير المادي والمحافظة عليه وصيانته وإبداعه من جديد، ومن ثم يسهمون في إثراء التنوع الثقافي والإبداع البشري، ويلاحظ الجهود الواسعة النطاق التي بذلتها اليونسكو لإعداد وثائق تقنينية من أجل حماية التراث الثقافي، لا سيما اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام ١٩٧٢ ، ويلاحظ أيضا أنه لا يوجد إلى الآن أي صك متعدد الأطراف ذي طابع ملزم يستهدف صون التراث الثقافي غير المادي ونظرا لأن الاتفاقات والتوصيات والقرارات الدولية القائمة بشأن التراث الثقافي والطبيعي ينبغي إثراؤها واستكمالها على نحو فعال بأحكام جديدة تتعلق بالتراث الثقافي غير المادي، ونظرا لضرورة تعزيز الوعي، وخاصة بين الأجيال الناشئة، بأهمية التراث الثقافي غير المادي وبأهمية حمايته، وإذ يرى أنه ينبغي للمجتمع الدولي أن يسهم مع الدول الأطراف في هذه الاتفاقية في صون هذا التراث بروح من التعاون والمساعدة المتبادلة، ويذكر ببرامج اليونسكو الخاصة بالتراث الثقافي غير المادي، لا سيما إعلان روائع التراث الشفهي وغير المادي للبشرية[4].

وبالتالي فإن الحفاظ على التراث من الانتهاك ضرورة قصوى للحفاظ على الهوية الوطنية، لأن تراث الأمم ركيزة أساسية من ركائز هويتها الثقافية، وعنوان اعتزازها بذاتيتها الحضارية في تاريخها وحاضرها؛ ولطالما كان التراث الثقافي للأمم منبعا للإلهام ومصدرًا حيويا للإبداع المعاصر ينهل منه فنانوها وأدباؤها وشعراؤها، كما مفكروها وفلاسفتها لتأخذ الإبداعات الجديدة موقعها في خارطة التراث الثقافي، وتتحول هي ذاتها تراثا يربط حاضر الأمة بماضيها، ويعزز حضورها في الساحة الثقافية العالمية. وليس التراث الثقافي معالم وصروحا وآثارًا فحسب، بل هو أيضا كل ما يؤثر عن أمة من تعبير غير مادي، وأغان وموسيقى شعبية وحكايات ومعارف تقليدية تتوارثها الأمة عبر الأجيال، وكذا تلك الصروح المعمارية المتعددة والمختلفة، وتلك البقايا المادية من أوانٍ وحلي، وملابس، ووثائق، وكتابات جدارية وغيرها؛ إذْ كلها تعبّر عن روحها، ونبض حياتها وثقافتها.

ولا شكّ أن التراث يمثّل ذاكرة متواترة للأجيال، ويمثّل بالتالي هويّةً يتعرّف بها الناس على شعْبٍ من الشعوب؛ كما أن التراث بقيمه الثقافية، والاجتماعية يكون مصدرا تربويا، وعلميا، وفنيا، وثقافيا، واجتماعيا...ذلكم أن تراكم الخبرات يُكوّن الحضارة، وتراكم المعلومات يُكوّن الذاكرة، وهذه الذاكرة بدورها هي من تشكل الهوية الوطنية.

فالتراث الثقافي للمجتمعات الإنسانيَّة أشبه ما يكون باللاشعور الجمعي إنه مخزون ثقافي يتميَّز بالثراء والعمق، حيث ينطوي على الخبرة الإنسانيَّة للمجتمع الناجمة عن تراكم تاريخي طويل، وهذا يشمل المعتقدات والأساطير والقيم. فاللاشعور الجمعي كما يراه كارل جوستاف يونغ يمثل مخزونا هائلا من الخبرات والتصورات الإنسانيَّة الموروثة والمستبطنة في كل فرد منا. ومن ثم ليس صحيحا أن لا وعي الكائن الإنساني الفردي هو فقط جماع تجربته كفرد بل فيه أيضا خبرات النوع الإنساني ككل، بكامل مخزونه من الأساطير والعقائد والتقاليد التي تبلورت طيلة آلاف السنين. ووفقا لهذه الرؤية فإن أن الفن ليس مجرد تعبير فردي منعزل، بل تعبير لاشعوري جمعي، وبالتحديد هو تعبير عن المخزون اللاشعوري للذات الجماعيَّة، حيث يرى أن الفنان في إبداعه لا يعبر عن ذاته بل عن اللاشعور الجمعي، أي أن دلالة النتاج الفني ينبغي أن تلتمس في رغبات الجماعة ولا شعورها لا في رغبات الذات الفرديَّة كما يعتقد فرويد. وهذه المماثلة تبين لنا إلى أي حدّ يتوغل التراث بوصفه لا شعورا جمعيا في الوعي الباطني للمجتمعات والأفراد ليشكل نابضا أساسيا من نوابض حركاتها وإيقاعا حيويا في ديناميات وجودها[5].

فالتراث هويَّة ثقافيَّة بما ينطوي عليه من عناصر توحيديَّة إنه بوتقة مشكل للوعي والهويَّة، وهو في المجتمعات العربيَّة أحد أهم عناصر وحدتها وتكاملها سيكولوجيا وثقافيا. يقول الجابري في هذا الخصوص " إنه بينما يفيد لفظ "الميراث" التركة التي توزَّع على الورثة، أو نصيب كل منهم فيها، أصبح لفظ التراث يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكريَّة والروحيَّة التي تجمع بينهم لتجعل منهم خلفا لسلف، وهكذا إذا كان "الإرث" أو "الميراث" هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محله فإن التراث قد اصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنوانا على حضور الآباء في الآبناء، حضور السلف في الخلف، وحضور الماضي في الحاضر". فالجابري يؤكد على أهميَّة التراث كعنصر توحيد للهويَّة عند العرب وينظر إليه على أنه الحي الحاضر في الوعي الذي يعطي للثقافة العربيَّة الإسلاميَّة عندما ينظر إليها بوصفها مقوما من مقوّمات الذات العربيَّة وعنصرا اساسيا من عناصر وحدتها. ووفقا لذلك ينظر الجابري إلى التراث " لا على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه تمام هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة واللغة والأدب والعقل والذهنيَّة والحنين والتطلعات، وبعبارة أخرى إنه في آن واحد: المعرفي والأيديولوجي واساسهما العقلي وبطانتهما الوجدانيَّة في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة. فالثقافة العربيَّة تراث وليست إرثا، لأن الإرث هو ما ينقل من الأب إلى ابنه، وما نرثه عن آبائنا، أما التراث فهو حضور الآباء في الأبناء، وهو ما يبقى حاضرا من السلف إلى الخلف[6].

وختاما، يمكننا القول أن الاهتمام بالموروث الثقافي يشكل ضرورة تاريخيَّة حيويَّة لتشكيل الهوية والحفاظ عليها؛ لأنه يشكل العمق التاريخي الحي لوجودنا وكنزاً ثقافيا لا يفنى لأجيال تريد أن تحقق وجودها وهويتها إذ لابد من العمل تنميَّة القيم الإيجابيَّة في هذا التراث والاستفادة منها في بناء الحاضر والمستقبل، ولا بد لنا في ذلك كله من الانفتاح على الآخر والاستفادة من حضارته وقيمه وعلومه الإنسانيَّة، دون أن ننصهر في هويته وثقافته وأن تصبح مهيمنة علينا كما هو الحال اليوم.

الهوامش:

[1] طرشاوي رقية، التراث الثقافي ودوره في الحفاظ على الهوية، مجلة أفاق فكرية، المجلد 11، العدد 2، 2023، ص308

[2] سلفادور منوز فيناس، النظرية المعاصرة للحفاظ على التراث الثقافي، ترجمة حسام مهدي، 2023، ص73-74

[3] علي أسعد وطفة، جينالوجيا التراث: الأصول التراثيَّة للهويَّة الثقافيَّة، https://watfa.net/archives/11448

[4] أشرف الضباعين، إدارة الآثار والتراث وفقاً للمعايير العالمية، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ، 2020ص330

[5] علي أسعد وطفة، جينالوجيا التراث: الأصول التراثيَّة للهويَّة الثقافيَّة، مرجع سابق.

[6] علي أسعد وطفة، جينالوجيا التراث: الأصول التراثيَّة للهويَّة الثقافيَّة، مرجع سابق.